

أثر الاحتلال الحبشي والفرسي لجنوب غرب الجزيرة العربية على التجارة القرشية في مكة

The impact of Al-Habashi and Persian Occupation of the southwestern Arabian Peninsula on Al- Qurashiah Trade in Mecca

إعداد: الدكتور/ سلطان أحمد الغامدي

أستاذ التاريخ القديم والآثار المشارك، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية

Email: sagamedi@uqu.edu.sa

الملخص:

يهدف البحث إلى التعرف على الطرق والأساليب التي اتبعتها قريش في كسب ود القبائل في الجنوب الغربي للجزيرة العربية، وكيف استطاعت أن تقنع القبائل بالثقة فيها؟، لاستمرار تدفق السلع إلى الشمال، وكيف أقنعت قبائل الشمال بالثقة التجارية فيها؟، وما هو موقفها من الصراع بين الفرس والروم؟، وأثر ذلك على نجاحها التجاري، وقد اتبع الباحث المنهج الاستقرائي الذي يعتمد على التحليل والبحث والنقد والتحقيق للكشف عن أسباب ذلك.

في ضوء ما توصل له البحث يوصي الباحث بالمحافظة على الطرق التجارية البرية القديمة في الجزيرة العربية بصفة عامة، والطرق التجارية التي كانت تربط الجنوب الغربي بالشمال بصفة خاصة، لما له من الأثر الكبير في تطور مكة قبل الإسلام، وظهور قبيلة قريش، وأن يكون ذلك معلم سياحي يروج له من أجل ربط الماضي بالحاضر، والاستمرار في التنقيبات الأثرية في مدينة مكة وما جاورها، وكذلك في جنوب غرب الجزيرة العربية، للكشف عن النقوش والبقايا الأثرية، لمعرفة المزيد من العلاقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية بين قبيلة قريش ودول الجنوب الغربي للجزيرة العربية.

توصل البحث إلى مجموعة من النتائج أهمها أن أهل مكة مارسوا التجارة بنشاط وألوهها جل اهتمامهم، لأنها كانت في نظرهم أشرف المهن وأعلى قدرًا، فأنشأوا لها الأسواق، ووفروا لها الأمن والهدوء والسلام ونظموا قوافلها وهياؤها ما يلزم لحمايتها وما تحتاجه القوافل من ماء وعلف ومرافق وخدمات واستراحات، وعززوا دعائمها بعقد الايلافات والحبال (العصم) والعهود لتنشيطها وتوسيع آفاقها.

الكلمات المفتاحية: الاحتلال الحبشي، الاحتلال الفارسي، جنوب غرب الجزيرة العربية، التجارة القرشية، مكة

The impact of Al-Habashi and Persian Occupation of the southwestern Arabian Peninsula on Al- Qurashiah Trade in Mecca

Dr. Sultan Ahmed Al-Ghamdi

Associate Professor, Umm Al Qura University, Kingdom of Saudi Arabia

Abstract

The research aims to identify the methods and techniques used by the Quraysh to win the favor of the tribes in the southwest of the Arabian Peninsula. It also explores how they were able to convince the tribes to trust them, thus ensuring the continued flow of goods to the north. It also explores how they convinced the northern tribes to trust them commercially, their stance on the conflict between the Persians and the Romans, and the impact this had on their commercial success. The researcher adopted an inductive approach, relying on analysis, research, criticism, and investigation to uncover the reasons for this.

In light of the research findings, the researcher recommends preserving the ancient land trade routes in the Arabian Peninsula in general, and the trade routes that connected the southwest to the north in particular, given their significant impact on the development of pre-Islamic Mecca and the emergence of the Quraysh tribe. This should be promoted as a tourist attraction, linking the past to the present, and continuing archaeological excavations in Mecca and its surrounding areas, as well as in the southwest of the Arabian Peninsula, to uncover inscriptions and archaeological remains, thus further understanding the political, economic, and social relations between the Quraysh tribe and the countries of the southwest of the Arabian Peninsula. The research reached a set of results, the most important of which is that the people of Mecca actively practiced trade and paid great attention to it, as it was, in their view, the most honorable and valued profession. They established markets for it, provided security, tranquility, and peace, organized its caravans, and provided them with the necessary protection and the water, fodder, facilities, services, and rest areas they needed. They strengthened its foundations by establishing bonds, ropes ('asm), and covenants to stimulate it and expand its horizons.

Keywords: Abyssinian occupation, Persian occupation, southwest Arabia, Quraysh trade, Mecca

1. المقدمة:

الحمد لله والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، سيدنا ونبينا محمد بن عبدالله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، تناول هذا البحث دراسة الأثر الاقتصادي من الاحتلال الحبشي ثم الفارسي لجنوب غرب الجزيرة العربية على مكة، في القرن السادس الميلادي، حيث تميز الجنوب الغربي منذ القدم بالتفوق التجاري برأً وبحراً، وقد جنوا من ذلك أرباحاً طائلة، طمع فيها الأجانب من خارج الجزيرة العربية، لاحتلالها ونهب خيراتها واثرواتها، حيث حاول الرومان احتلالها عام 24ق.م، من خلال حملة اليوس جالوس، ولكنها فشلت ولم يكتب لأهدافها النجاح، كما حاول الفرس كسب ود الجنوب الغربي، من خلال إقامة العلاقات الدبلوماسية معها، لحرمان الرومان من تحقيق أهدافهم، وهذا يدل على مدى الأهمية التي حظيت بها دول الجنوب الغربي من الجزيرة العربية.

كان لجنوب غرب الجزيرة العربية طرق تجارية برية اعتمدت عليها في تجارتها، منها طريق البخور، الذي كان يمر بمكة، ولكن بعد الاحتلال الحبشي ثم الفارسي تأثر هذا الطريق كثيراً، ولذلك برز بنو فهر (قريش) دون سواهم في إعادة هذا الطريق التجاري إلى سابق عهده، وهنا تكمن أهمية البحث للكشف عن أسباب ذلك، وما هي الطرق التي اتبعتها سكان مكة للتفوق التجاري، ويهدف البحث إلى التعرف على الطرق والأساليب التي اتبعتها قريش في كسب ود القبائل في الجنوب الغربي للجزيرة العربية، وكيف استطاعت أن تقنع القبائل بالثقة فيها؟، لاستمرار تدفق السلع إلى الشمال، وكيف أقنعت قبائل الشمال بالثقة التجارية فيها؟، وما هو موقفها من الصراع بين الفرس والروم؟، وأثر ذلك على نجاحها التجاري، وقد اتبع الباحث المنهج الاستقرائي الذي يعتمد على التحليل والبحث والنقد والتحقيق للكشف عن أسباب ذلك.

1.1. التمهيد:

تقع مكة¹ في الجهة الغربية من شبه الجزيرة العربية، جنوب الحجاز، ويحدها من الشرق تقيف (الطائف)، ومن الشمال يثرب (المدينة المنورة)، فيما يحدها من الغرب البحر الأحمر، وتمثل مكة نقطة الالتقاء بين تهامة وجبال السروات، لذلك عدها البعض تهاميه (المكي الكردي، 2000، ج1، ص 66)، وموقع مدينة مكة في واد من أودية جبال السراة، تحيط به الجبال من كل جانب تحصره عن غيره من المناطق، إلا من ثلاثة منافذ يوصلها الأول بطريق اليمن، ويصله الثاني بطريق قريب من البحر الأحمر عن مرفأ ميدة، ويصله الثالث بالطريق المؤدي إلى فلسطين (جريس، 2023، ج1، ص 32)، ولقد أغنت جبال مكة المحيطة بها سكانها عن بناء الأسوار لحمايتها (المكي الكردي، 2000، ج1، ص 67).

تأسست مكة حوالي القرن التاسع عشر قبل الميلاد، بعد أن رُزق إبراهيم بابنه إسماعيل وأسكنه مع أمه هاجر في مكة، فعاش إسماعيل بين 1717_1854 ق.م، وتفجر الماء المبارك تلبية لحاجة إسماعيل للماء، ثم بنى إبراهيم الكعبة بمساعدة ابنه إسماعيل، بعد أن يفح الابن وبلغ حوالي الثلاثين من عمره، وهذا مبدأ نشوء مكة كبلدة مقدسة (الشريف، 1965م، ج1، ص 90).

¹. سميت مكة بذلك لأن العرب قبل الإسلام كانت تقول لا يتم حننا حتى نأتي مكان الكعبة، فنمك فيها أي نصف صفير المكاء حول الكعبة، وكانوا يصفرون ويصفقون بأيديهم إذا طافوا بها، والمكاء بتشديد الكاف طائر يأوي الرياض، قال أعرابي ورد الحضر فرأى مكاء يصيح فحن إلى بلاده، وقال قوم سميت مكة لأنها بين جبلين مرتفعين عليها وهي في هبطة بمنزلة المكوك، وقال قولهم: إنما سميت مكة لازدحام الناس فيها من قولهم، قد امتك الفصيل ما في ضرع أمه إذا مصه مصاً شديداً فغلظ في التأويل لا يشبهه مص الفصيل الناقية، ويقال أيضاً سميت مكة لأنها عبدت الناس فيها فيأتونها من جميع الأطراف من قولهم، إمتك الفصيل أخلاف الناقية إذا جذب جميع ما فيها جذباً شديداً فلم يبق فيها شيئاً، وقيل لأنها تمك الجبارين أي تذهب نخوتهم، وقيل لأنها تمك الفاجر أي تخرجه. ياقوت بن عبد الله الحموي: معجم البلدان، مج5، دار صادر، بيروت، 1977م، ص182.

لم تكن مكة بقعة مهجورة خاوية عند قدوم النبي إبراهيم عليه السلام، بل كانت محطة للقوافل التجارية التي تضرب خيامها، وتقيم فيها سوقاً تجارية كبرى، فهي منطقة التقاء الشماليين بالجنوبيين، وبعد تفجر ماء زمزم شجع على الاستقرار والاستيطان، فسكنتها قبيلة جرهم ثم خزاعة حتى تمكن قصي بن كلاب من التفرد بحكم مكة ومن بعده ابنائه، ليصبح القرار فيها لقبيلة قريش (السباعي، 1999، ج1، ص 22).

ظهرت قريش كقوى اقتصادية كبرى في الجزيرة العربية، بعد أن كانت تعتمد على ما تقدمه للقوافل التجارية من خدمات، حيث وقوعها على طريق هذه القوافل، مستغلة الحروب والمنازعات التي حصلت في جنوب شبه الجزيرة العربية عقب الاحتلال الحبشي ثم الفارسي، وكذلك على علاقاتهم مع التجار، الذين اعتمدوا عليهم في نقل سلعهم في أول الأمر، قبل أن يحتكر أهل مكة سير هذه القوافل (سالم، 1993، ج1، ص 307).

2. الإطار النظري:

أولاً: الجنوب الغربي قبل الاحتلال الحبشي ثم الفارسي:

اشتهر العرب في جنوب غرب الجزيرة العربية منذ القدم بالحضارة، فقد اهتموا بالزراعة نتيجة وجود التربة الخصبة، وتوافر كميات الأمطار الكافية، فزرعوا حتى سفوح الجبال التي حولوها إلى مدرجات²، كما اعتنوا بزراعة النباتات النادرة والحبوب المختلفة والفواكه المتنوعة، وحفروا الأفنية وبنوا السدود الكثيرة³، وأشهرها سد مأرب، الذي يُعد من أعظم المشاريع المائية في العالم القديم⁴، كما اشتهروا بالصناعة، وقد ساعدتهم على ذلك طبيعة أراضيهم التي تحتوي على أنواع من المعادن الثمينة حيث أخذوا يستخرجونها من باطن الأرض، فقد كان فيها كثير من مناجم الذهب والفضة والحجارة الكريمة وغيرها، ولذا فقد اهتموا باستخراج هذه المعادن، وامتحن كثيراً منهم صناعة التعدين كالسيوف مثلاً، ومن الصناعات الأخرى دبغ الجلود وصنع التروس والدروع السمكية وغيرها (برو، 1422هـ/2001م، ص 92_93).

أن الموقع المتوسط لشبه الجزيرة العربية بين مناطق العالم القديم المختلفة، مكن العرب في الجنوب الغربي من مزاوله التجارة على نطاق عالمي (Rostovtzeff, Caravan cities of the East, 1932, p20)، فنقلوا منتجات بلادهم ومنتجات

2. أنتج سكان الجنوب الغربي العديد من السلع، أهمها الكندر والطيوب والعمود والمر واللبن والبن والصمغ والكافور والورس [نبات أحمر اللون يشبه الزعفران يستخدم في الصباغة]، والحبوب مثل القمح والشعير والذرة والدخن والأرز والقطن والجوز الذي يمتاز بصلابته خشبه وشجر التألب والأتاب وغيرها. علي معطي: تاريخ العرب الاقتصادي قبل الإسلام، دار المنهل اللبناني، بيروت، ط1، 1423هـ/2003م، ص 57_58.

3. من أشهر هذه السدود سد الجلال الذي أُقيم في مضيق طبيعي عند انحدار وادي نجران، وسد عروش لحج وسد شرجان وسد قصعان وربوان وشحران وطمحان وعباد وسحر وذي شهال وذي رعين وسد نقاظة عند قرية ذي ربيع وسد نضار وهران وسد الشعابي وسد المليكي والنواسي والمهباد وسد الخائق بصعدة وغيرها. علي معطي: المرجع السابق، ص 78_79.

4. عبد سعيد مرعي: تاريخ الجزيرة العربية القديم، مكتبة الخبتي، بيشة، ط1، 1425هـ / 2004م، ص 67. شُيد سد مأرب في وادي أذنة الذي يقع بين جبلي أبلق القبلي (الأيمن) وأبلق الأوسط (اليسر)، وتتجمع فيه عدة روافد من ذمرار وجهران وخولان وبلاد مراد وردمان وغيرها، ويبعد هذا السد عن مدينة مأرب أكثر من ثلاثة أميال، حيث توجد المدينة على حافة الوادي الشمالية، وتشير النقوش إلى أن بناء سد مأرب لم يكن بفعل ملك واحد بل هو من فعل عدد من الملوك الذين تضافرت جهودهم وتتابع عبر السنين والعصور لإتمامه، وإدخال إضافات متعددة عليه، حتى اتخذ شكله النهائي في عهد شمر يرعش وتحديدًا عام 300م، وإلى جانب ذلك قام عدد من الملوك بترميم السد واصلاحه في فترات متلاحقة. للمزيد راجع الحسن بن أحمد الهمداني: صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الأكوغ، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط2، 1429هـ/2008م، ص 247_248؛ راجع صالح أحمد العلي: تاريخ العرب القديم والبعثة النبوية، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، 200م، ص 25.

الصين والهند وشرقي أفريقيا⁵، إلى بلاد الرافدين و سوريا وفلسطين ومصر ومناطق حوض البحر المتوسط، وجنوا من ذلك أرباحاً هائلة ساعدتهم على القيام بمشاريع عمرانية ضخمة، وتحقيق الكثير من المنجزات الحضارية⁶، فضلاً عن كونها تقع في وسط المناطق التي شهدت قيام عدد من الحضارات الإنسانية المزدهرة، كحضارة الهند وبلاد الرافدين والحضارة المصرية في وادي النيل وحضارة فارس والإغريق والرومان وحضارة جنوب شرق إفريقيا (Kiernan, 1937, p. 19).

أسهمت التجارة في تطور اليمن وتقدمها، وفي إغناء الأرستقراطية والفئات التجارية، الذين كان لهم حظ من رفاهية العيش والتنعم والتفنن في المأكل، وامتلاك الإماء والعبيد، وكان يتعاطى بالتجارة الى جانب التجار المحترفين، الملوك ورؤساء المعابد وأصحاب الأملاك ورؤساء العشائر، كما شيّدوا القصور والحصون والأسواق والمعابد والمقابر وصنعوا التماثيل والفخار، وسطروا على واجهات الصخور الرسوم والنقوش، وهو ما يُظهر تقدمهم الثقافي والفني (دلو، 2004، ص 138).

تحدث عدد من المؤرخين والجغرافيين الإغريق والرومان عن منتجات اليمن الزراعية، فقال هيرودوت: " تزفر أرباحاً عطرياً لأنها البلاد الوحيدة التي تنتج البخور والمر والقصيعة والقرفة واللدان" (بيرين، 1963، ص 29)، ويتحدث ثيوفراست في كتابه تاريخ النبات عن طيوب بلاد العرب: "تحدث شقوق في الشجيرات يقطر منها سائل صمغي بقطرات شبيهة باللؤلؤ، ويكوم كل واحد نصيبه من الصبر والبخور بالطريقة ذاتها ويتركها في عهدة رجال يقومون بحراستها" (ص 29)، ويصف ديو دور الصقلي بلاد سبا فيقول: " تفوح في طول البلاد وعرضها روائح عطر طبيعي...وتنمو على طول الساحل أشجار البلسم والقرفة، وهي نبتة خاصة لطيفة المنظر عندما تقطع، ولكنها سريعة الذبول، وفي داخل البلاد غابات كثيفة تنمو فيها أشجار البخور والصبر الضخمة وأشجار النخيل والكافور وغيرها من الأشجار ذات الروائح العطرية... أما السبئيون فأنهم متفوقون على جميع العرب المجاورين وغيرهم من الشعوب بثرواتهم وبذخهم بنوع خاص" (ص 30)، ويذكر سترابون أن السبئيين جمعوا ثروات هائلة من التجارة في الطيوب وقد انعكس ذلك في صناعاتهم وفنونهم كما انعكس في حياتهم الاجتماعية والتحف الرائعة التي تزخرف بها قصورهم التي بالغوا في تزيينها وتزويقها على نحو تجاوز كل تقدير في الحسان، ولم يكتف السبئيون القدماء بالتجارة بمنتجات بلادهم بل كانوا وسطاء أيضاً في تجارة منتجات البلدان الأخرى، فعن طريقهم كانت التوابل والسيوف الهندية والحريير الصيني والذهب الأثيوبي تصل الى مصر والشام والعراق وبلاد اليونان وروما" (Strabo, Geography of) (Strabo, BK: 16, p349).

⁵ اعتمد سكان جنوب غرب الجزيرة العربية في متاجرتهم مع الصين والهند وشرق إفريقيا على وجود خلجان ساعدتهم على جعلها موانئ صالحة لإيواء السفن ومنها عدن وفانا (حصن الغراب) وظفار ومسقط، فكانوا يأتون بمواد التجارة ويفرغونها في هذه الموانئ، ثم تحملها قوافلهم إلى داخل الجزيرة العربية أو إلى بلاد الشام والرافدين ومصر وما جاورهما. (برو، 1422هـ/2001م، ص 91_92)

⁶ لطفي عبد الوهاب يحيى: العرب في العصور القديمة، بيروت، 1979، ص 214 وما بعدها. دلت الاكتشافات الحديثة أن عرب الجنوب قد بنوا مدناً كثيرة، درست معالم معظمها ولم تبق إلا أنقاض بعضها مثل معين ومأرب ويثيل (براقش) وظفار وشبوة وغيرها، وقد ذكر شعراء العرب عشرات منها في أشعارهم، ووصفوا بعضها في قصائدهم، وتغنوا بجمالها، وكانت كل مدينة تحتوي على قصر أو عدة قصور، وعلى معابد فخمة بالإضافة إلى منازل السكان، ومن أشهر قصور اليمن قصر سلحين (قصر بلقيس) في مأرب وقصر غمدان في صنعاء وقصر ناعط العظيم الذي يلي قصر غمدان شهرةً وقصر تلغم وقصر ريدة وقصر صرواح وغيرها، كما أكثروا من بناء الهياكل إذ احتوت بعض مدنها 60 هيكلًا وبعضها الآخر 65 هيكلًا، وكانوا يزينون مبانيهم بنقوش كتابية أو برسم تمثل بعض الحيوانات أو بزخارف من أغصان وأوراق الشجر والأزهار أو ببعض الأشكال الهندسية الجميلة، وأحياناً كانوا ينقشون على الواجهات مشاهد من الحياة العادية كحراثة الأرض أو غير ذلك. (برو، 1422هـ/2001م، ص 93_94).

كانت القوافل التجارية لدول جنوب غرب الجزيرة العربية تمر بمكة⁷، التي أصبحت محطة مهمة على طريق القوافل في منتصف الطريق بين مأرب في الجنوب والبتراء في الشمال (هيكل، دبت، "حياة محمد" ط5، ص64)، وذلك بعد تفجر ماء زمزم لهاجر وابنها إسماعيل في القرن التاسع عشر قبل الميلاد⁸، وقد نزلت بها بعض القبائل اليمنية التي حكمتها زمناً، كقبيلة جرهم التي نشأ بينهم النبي إسماعيل وتكلم بلغتهم وتزوج منهم زواجه الأول ثم الثاني، وقد تولت أمر البيت بزعامه الحارث بن مضامن الجرهمي، ثم خزاعة التي شجعت على نمو التجارة في مكة، وتسيير شؤون الحج بعد أن كان أمر مكة قد تدهور، والحج إليها قد قل بسبب بغي جرهم وإهمال بئر زمزم، فحاربتهم خزاعة وأجلتهم عن مكة، واحتلت مكانتهم في ولاية البيت وسدنته، وكان ذلك في أوائل القرن الثالث الميلادي (207م) بقيادة عمرو بن لحي الخزاعي⁹، كما عملت خزاعة على جلب الأصنام لتشجيع العرب على ارتياد مكة وزيارتها، وعملت على توفير الماء والغذاء، وأخذت ضريبة العشر من الداخلين مكة من التجار ومن غير أهلها (الشريف، 1965م، ص116)، ومن مكة تواصلت القوافل التجارية طريقها إلى البتراء ومنها تفترق مشرقة إلى بلاد الرافدين أو مغربه إلى مصر (الختعمي، 1422هـ/2001م، ص37 وما بعدها).

استمر الوضع كذلك حتى قبيل عهد قصي بن كلاب¹⁰ حوالي منتصف القرن الخامس الميلادي، وكان دور مكة هو تقديم العون والمؤن للقوافل التجارية القادمة من الجنوب الغربي إلى البتراء أو العكس، حيث كانت محطة استراحة للتجار ودوابهم، كما كانت نظرتهم للتجارة في أول الأمر على أنها ليست من اختصاصهم، ولذا فقد اعتمدوا على ضريبة العشر، مضافاً إليها الهدايا والنذور التي تقدم إلى الكعبة، وكذلك ما تحصل عليه من عائدات عن سقاية الحاج والرفادة (اليقوي، دبت، " تاريخ اليقوي"، ص242؛ جواد علي، 1968م، ج4، ص20).

⁷ نورة النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية في الفترة من القرن الثالث قبل الميلاد وحتى القرن الثالث الميلادي، دار الشواف للنشر والتوزيع، الرياض، ط1، 1992م، ص217. أن أقدم ذكر لمكة في النصوص القديمة، عندما ذكرها الجغرافي اليوناني بطليموس كلاوديوس في خريطته تحت اسم مكاربو Macoraba، وربما كانت أقدم عهداً من بطليموس الذي عاش في القرن الثاني بعد الميلاد، ولا يستبعد بعض المؤرخين من وجود صلة بين لفظة مكة ولفظة مكربة، التي كان حكام سبأ الأوائل يلقبون أنفسهم به، وهو لقب ديني يعني مقرب، أي أقرب الناس إلى الآلهة ومقربهم إلى آلهتهم، وهناك من يرى أن تاريخ مكة سابق لكتابة أسفار التوراة، فإنما هي ميثا المشار إليها في سفر التكوين، وهي ميثا التي يقول الرحالة برتون أنها كانت بيتاً مقصوداً لعبادة أناس من الهند، ويقول الرحالة الشرقيون أنها كانت بيتاً مقصوداً للصائبة، الذين أقاموا في جنوب العراق قبل الميلاد بأكثر من عشرة قرون، ويذكر بعض المؤرخين إلى أن المعبد الذي ذكره ديودور الصقلي والذي يقده العرب لا ينطبق إلا على الكعبة المشرفة، ولكن ديودور الصقلي لم يحدد لنا بدء سكنى المدينة، فضلاً عن تاريخ إنشاء المعبد نفسه. أحمد إبراهيم الشريف: مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، القاهرة، 1965م، ص95؛ راجع (جواد علي، 1968م، ج4، ص10)

⁸ بعد قدوم النبي إبراهيم بزوجه هاجر وابنها إسماعيل للاستقرار في مكة، لم تكن هذه البقعة خاوية، بل كانت محطة للقوافل التجارية التي تضرب خيامها وتقيم فيها سوقاً تجارية كبرى، فهي منطقة التقاء الشماليين بالجنوبيين، وبعد وصول إسماعيل وأمه تفجر الماء المبارك (ماء زمزم)، مما شجع على الاستقرار والاستيطان، وكانت قبيلة جرهم قد استوطنت مكة. عواطف أديب سلامة: قریش قبل الإسلام دورها السياسي والاقتصادي والديني، دار المريخ للنشر، الرياض، 1414هـ/1994م، ص23.

⁹ للمزيد عن هذه الشخصية راجع عطا الله بخيت حماد المعاينة: عمرو بن لحي ودوره في تغيير ملة إبراهيم الحنيفية عليه السلام دراسة عقدية، المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية، جامعة آل البيت، الأردن، مج8، ع2، 1433هـ/2012م، ص1-28.

¹⁰ للمزيد حول هذه الشخصية راجع أحمد فرج فليح: قصي بن كلاب دراسة في سيرته الشخصية، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة البصر، كلية التربية-قسم التاريخ، 1433هـ/2012م.

ثانياً: الاحتلال الحبشي لجنوب غرب الجزيرة العربية ونتائجه:

إن الخلافات الداخلية المحتملة بين القبائل اليمنية في صراعها الدائر على السلطة وخاصةً بين سبأ وحمير، التي بدأت منذ القرن الثالث الميلادي ثم تطورت بعد ذلك، مكنت مملكة أكسوم الحبشية¹¹ من التدخل بل المساهمة في تأجيج الصراع واستمراره، مما كان سبباً في أضعاف دور اليمن التجاري، حيث انصرف ملوك حمير إلى الاهتمام بالحروب الداخلية وأهملوا الزراعة والتجارة وال عمران، فسد مأرب الذي رُمم عام 449م في عهد الملك شرحبيل يعفر تهدم بعد عام من ترميمه، وأدى ذلك إلى فرار جماعات كبيرة من سكان المنطقة إلى الجبال، إلا أن الملك أعاد البناء من جديد عام 451م وسجل تفاصيل ذلك في نقش طويل، يتبين منه أن هجرة القبائل التي كانت تسكن في منطقة سد مأرب تمت نتيجة انهيار السد، وعجز ملوك حمير عن ترميمه (مهران، دبت، ص 365 وما بعدها)، ومن هنا بدأت تظهر عوامل الضعف في الدولة اليمنية (بافقيه وآخرون، 1985م، ص 86)، كما أن الانقسامات الدينية بين اليهودية والمسيحية التي أدت إلى التطاحن، كانت بداية أقول الحضارة في جنوب غرب الجزيرة العربية، حيث مهدت للاحتلال الحبشي ثم الاحتلال الفارسي¹²، وهو ما أدى بدوره إلى تدهور التجارة في جنوب غرب الجزيرة العربية (مهران، 1993، ص 417)، فحينما وصل إلى حكم المملكة الحميرية الثانية¹³ يوسف أسأريثأر (ذو نواس) سنة 517، والذي كان يهودياً كما تشير المصادر، أو أنه تهود بعد أن كان نصرانياً، بدأ سياسة مناهضة للنصارى في اليمن ولحفائهم من الرومان والأحباش، وهو ما أدى إلى قيام مملكة الحبشة بحملتها العسكرية الأولى إلى اليمن سنة 518 م، التي وصلت إلى المخا على البحر الأحمر ثم إلى ظفار، ولكن هذه الحملة لم تستمر طويلاً، حيث واجهت مقاومة أجبرتها على العودة إلى الحبشة دون أن تشكل احتلالاً، وأن كانت قد دعمت بعض القبائل الموالية للأحباش، وبخاصة على الساحل الغربي لليمن، وهي المنطقة المهمة للتجارة الحبشية، على أن أهم ما أسفرت عنه الحملة هو استمرار العداء بين الأحباش وذي نواس، والذي تُرجم بعد ذلك بسياسة عدائية من ذي نواس ضد نصارى نجران، فيما عرف بواقعة الأخدود عام 523م (القرآن الكريم، البروج: 4 وما بعدها)، وأدى ذلك إلى غزو الأحباش لليمن مجدداً عام 525م، وقد أدى هذا الاستيلاء إلى إنهاء حكم الحميريين لليمن أو انتهاء حكم التبابعة (مرعي، 2004م، ص 61-62).

وعلى الرغم من أن الدافع وراء نجدة الأحباش لنصارى اليمن دافع ديني، إلا أن عدد من المؤرخين أشاروا إلى أن تدخل الأحباش في اليمن، كان كما تشير طبيعة الأحداث لأسباب اقتصادية وسياسية خاصة بالحبشة وبيزنطة، ضمن صراعهم مع أي قوة تهدد تجارتهم في اليمن والطرق منها واليها (جبران وروضة آل ثاني، 1998، ص 127).

¹¹ مملكة أكسوم هي مملكة في شرق إفريقيا، وبلغت في فترات توسعها لتشمل إثيوبيا وإريتريا وجنوب شرق السودان، وقد برزت هذه الدولة في القرن الأول الميلادي، وإن كانت جذورها ترجع إلى ما قبل ذلك التاريخ، ويرى عدد من الباحثين أن تأسيسها كان على أيدي عرب جنوب الجزيرة العربية، ومن المؤكد ارتباطها الوثيق بالحضارة العربية الجنوبية، وأكسوم هي المدينة والمملكة، ومنذ القرن الثالث الميلادي حقق الأكسوميون توسعات في جهات متعددة، وفي ذروة تلك التوسعات دخلت إليها المسيحية، وقويت الصلات مع أباطرة الروم. سبتيانو موسكاتي: الحضارات السامية القديمة، ترجمة وزاد عليه السيد يعقوب بكر، مراجعة محمد القصاص، القاهرة، 1968م، ص 212-218.

¹² لمعرفة المزيد عن هذا الصراع راجع: محمد عبد الله باوزير: الصراع اليهودي المسيحي في اليمن القديم جذوره وآثاره، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عدن، 1996م.

¹³ هو العصر الرابع من تاريخ سبأ، ويمتد من نحو 300م إلى العام 525م، وحمل فيه الملوك لقب ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنات، الذي تحول بعد فترة إلى ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنات وأعرابها في الجبال والتهائم، مما يدل على توسع المملكة الحميرية الثانية، وضمها معظم مناطق جنوبي شبه الجزيرة العربية، وينسب تأسيس هذه المملكة إلى شمر يهرعش المعروف عند الإخباريين بـ شمر يرعش بن ناشر النعم (270_310م)، وهو أيضاً تبع الكبير. راجع (مرعي، 2004م، ص 60_61).

حكم الأحباش البلاد حكماً شديداً ضج منه الناس ودام خمسين عاماً، وقد رافق هذا الاحتلال كوارث عظيمة وأزمات اجتماعية واضطرابات سياسية، فقد طغى سيل العرم وانهار سد مأرب حوالي منتصف القرن السادس الميلادي، فأصيب اقتصاد اليمن الزراعي بأضرار بالغة، وهجرت بعض القبائل ديارها إلى خارج اليمن (دلو، 2004، ص 206)، واستغلوا حكمهم لليمن في نشر الديانة المسيحية في جميع أرجاء الجزيرة العربية، وأخذ أبرهة من نجران مركزاً رئيسياً لحملته الدينية، وتبع ذلك إنشاء الكنائس في أنحاء مختلفة من اليمن (برو، 1422هـ/2001م، ص 85)، ولذلك دخلوا في صدام مع كل القبائل اليمنية ومع غيرها، كقبائل معد، وهي من ضمن القبائل التابعة لدولة كندة، التي غزاها عام 553م (عبد الله، 1990، ج2، ص 272-273)، وكان من أسباب هذا العداء بناء كاتدرائية عرفت باسم الكليس أو القليس، والتي بالغ في تزيينها واتقانها، وقد نقشها بالذهب والفضة وصنوف الجواهر والزجاج والفسيفساء (الطبري، 1979، ت: محمد أبو الفضل، ج2، ص 131)، وأخذ يسعى لجذب العرب إلى زيارتها والعزوف عن زيارة الكعبة، لكن العرب أظهروا تعلقهم بالكعبة وكرههم للأحباش، واحتقارهم للكليس، فقام رجلان من قبلية فقيم من بني مالك بن كنانة ووضعوا أقداراً فيها، الأمر الذي جعل أبرهة يغضب وأقسم ليهدم الكعبة، وسار بجيشه إلى مكة لينفذ وعيده في العام الذي سمي بعام الفيل 570-571م (ص130_131)، وكان كما هو معروف من فشل الحملة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم {سورة الفيل}، وقد صادف وصول جيش الأحباش إلى مكة ثورات بعض القبائل اليمنية على الحكم الحبشي، مع أن بعضاً منهم انضم إلى صفوف الأحباش يقاتل معهم (العماري، 2016، ص224).

يتضح من ذلك النقش الذي عثر عليه في مأرب، والمعروف بنقش أبرهة CIH541، والذي يتكون من 136 سطر، بأن وفود عربية وفارسية وبيزنطية، جاءت إلى اليمن بعد الاحتلال الحبشي للتهنئة لأبرهة بالحكم، أو لبحث علاقاتها ومصالحها التجارية مع اليمن في ظل حكم أبرهة، ولم يكن من ضمن هذه الوفود وفد من أهل مكة، وهو ما يؤكد وقوفهم آنذاك ضد الاحتلال الحبشي، وتأييدهم للقبائل في جنوب غرب الجزيرة العربية لطرد المحتل، والذي توج لاحقاً كما يعتقد الباحث بتعاون بينهما لإعادة النشاط التجاري إلى سابق عهدها كما سنوضح ذلك لاحقاً، كما أن الباحث يعتقد أن عدم قدوم وفد أهل مكة لتهنئة أبرهة بالحكم هي إحدى أسباب حملته المشهورة عليهم عام 570م، باعتبار أن مكة كانت محطة تجارية مهمة على طريق البخور (بافقيه، 1973، ص 137).

كان من نتائج هزيمة الجيش الحبشي أن هابت العرب مكة وسكانها، ودُمر المخطط الروماني الحبشي في السيطرة على شبه الجزيرة العربية، كذلك أصابت بالشلل مطامع وأحلام أبرهة، بل كانت الهزيمة بمثابة بداية النهاية للحكم الحبشي، حيث مات أبرهة وتفرق شمل أسرته الحاكمة، فاختلف أبناه يكسوم ومسروق، حيث حكم الأول لمدة سنتين والأخر ثلاث سنوات، وكانت سياسة هذين الحاكمين شديدة الوطأة على أهل اليمن بما فيها من استمرار للظلم (جواد علي، 1968م، ج3، ص 517)، وهذا ما أشارت إليه المصادر العربية الإسلامية، فالمسعودي يقول عن مسروق " أنه زاد على أبيه وأخيه في الأذى" (المسعودي، 1409هـ، ت: أسعد داغر، ج1، ص 80)، وقد ساعد ذلك قيام الأقبال والأدوار بحركاتهم في أماكن متفرقة من اليمن، رغم أنها كانت بحاجة إلى من ينظمها.

ثالثاً: سيف بن ذي يزن والاحتلال الفارسي:

كان سيف بن ذي يزن (516_574م) الذي قاد الحركة التحريرية الوطنية ضد المحتلين الأحباش (ثريا منقوش، دبت، ص 32-33)، وهي تندرج ضمن محاولات سابقة للتخلص من حكم الأحباش، سواء ما كان من ترمذ (ثورة) يزيد بن كيشة والأقبال في المناطق الشرقية منذ عهد أبرهة أو غيره (جواد علي، 1968م، ج3، ص 484_485)، لكن ثورة سيف استفادت من تجارب

اليمن السابقة، كما أنها وعت طبيعة الصراع الدولي حول بلادهم، ولذا فقد لجأ أولاً إلى قيصر ملك الروم وطلب العون والمساعدة منه لطرد الاحتلال الحبشي، ولكنه رفض ذلك لأسباب دينية كما تذكر المصادر حيث أن كلتا الدولتين يعتنقون المسيحية، مما جعل سيف يلجأ إلى كسرى ملك الفرس، حيث توجه أولاً إلى الحيرة لمقابلة حاكمها النعمان بن المنذر الذي أوصله إلى كسرى أنوشيروان (531_578م)¹⁴ إمبراطور الدولة الساسانية، الذي وافق على مساعدته بالمال والرجال، ليحقق هدفاً فارسياً وهو السيطرة على تجارة البحر الأحمر وطرق التجارة الأخرى من اليمن وإليها، وليحقق نصراً على أعدائهم التقليديين بيزنطة وحلفائها (الطبري، 1979، ت: محمد أبو الفضل، ج2، ص 141).

ورغم اضطراب المصادر حول حجم المساعدة العسكرية التي أرسلت من فارس مع سيف بن ذي يزن، إلا أن هذه القوة كانت تحت قيادة قائد فارسي يسمى (وهرز)، وقد وصلت القوة ونزلت بساحل حضرموت في موضع يدعى مثوب (بافقيه، 1973، ص 172)، وقد تمكن اليمينيون من استعادة عرشهم بمساعدة الفرس بعد سيطرة دامت اثنتين وسبعين سنة، توارث الحكم خلالها أربع ملوك وهم إرباط وأبرهة ويكسوم ومسروق، وبعد انتصار وهرز كتب إلى كسرى يبشره بذلك، وبعث إليه ما غنمه من أموال، وأمر كسرى بأن يُملك سيف بن ذي يزن على اليمن، وفرض عليه جزية سنوية وخراجاً معلوماً في كل عام، وبعد تنويع سيف عاد وهرز قائد الفرس إلى كسرى (ابن الأثير، 1978، ج1، ص 265).

جاءت وفود العرب المهتنة للملك سيف وذلك بعد مولد الرسول صلى الله عليه وسلم بستين، إذ أتته وفود العرب وأشرفهم وشعرائهم لتهنئته ومدحه، وكان من بين الوافدين عليه عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف¹⁵، جد الرسول صلى الله عليه وسلم، وأميرة بن أبي الصلت وأميرة بن عبد شمس، وخويلد بن أسد في جماعة من أهل بيته، فهناؤه بالظفر على الأحباش، وامتدحه شعراؤهم في قصر غمدان (الحميري، ت: الجرافي والمؤيد، 1978، ص 152)، وقد أقاموا شهراً نالوا من كرم الملك سيف، إذ أمر لكل واحد منهم مائة من الإبل وعشرة من العبيد وعشرة من الإماء وعشرة أرتال من الفضة وغيرها من الهدايا، وأمر لسيد قريش عبدالمطلب بعشرة أضعاف ذلك (الأكوع، 1971، ص 430-431).

ولعل هذه الزيارة توضح لنا أهمية بلاد اليمن في التجارة المكية، خاصة بعد أن استغل التجار القرشيون الصراع في جنوب غرب الجزيرة العربية وأخذوا على عاتقهم استمرار سير القوافل التجارية، وجلب السلع من اليمن إلى شمال الجزيرة العربية كما سنوضح ذلك لاحقاً، بينما انهك اليمينيون في مقاومة الاحتلال الحبشي وقيل ذلك الصراع بين اليهود والنصرانية، وهو ما ذكرناه سابقاً والذي أثر بدوره على سير القوافل التجارية.

استبشر اليمينيون خيراً بعد استقرار الأوضاع في بلادهم وطرد الاحتلال الحبشي، وتنويع سيف بن ذي يزن ملكاً على البلاد، بعودة تصدير السلع التجارية وسير القوافل من جنوب غرب الجزيرة العربية، ولكن ما لبث أن تدهورت الأوضاع مرة أخرى وذلك بعد مقتل سيف بن ذي يزن على يد مجموعة من الأحباش الذين كانوا خدماً عنده (بافقيه وآخرون، 1985م، ص 65)،

¹⁴. يُعد عصر كسرى الأول الملقب أنوشروان، وتعني الروح الخالدة، أزهى فترات الدولة الساسانية بعد فترة انحطاط مريرة، فقد كانت الدولة منهكة في الخارج، بسبب تكاثر الأعداء، وضعف الملوك، ومنازعتهم مع أولياء عهدهم وأدعياء العروش، ومفككة من الداخل بسبب أعمال المزدكيين، التي كرسست عداء العامة للخاصة، وتوجس الخاصة من العامة، وقد قام كسرى أنوشروان بإصلاحات عديدة في الجانب الاجتماعي والمالي والحربي، وقد تمكن من هزيمة أعداء الساسانيين كالإمبراطورية البيزنطية، وأتراك الخزر والقبائل المشاكسة في الشرق والشمال، كما قضى على فوضى مزدك واتباعه، وقد أدت الإصلاحات الداخلية التي اعتمدها أنوشروان إلى تلاحم الطبقات الفارسية. للمزيد راجع مفيد رائف العابد: معالم تاريخ الدولة الساسانية، دار الفكر المعاصر، دمشق، ط1، 1420هـ/1999م.

¹⁵. للمزيد عن هذه الشخصية راجع (المحمداوي، 2012م، ص 31-114)

وكانت مدة حكم سيف بن ذي يزن عشرين سنة، وبموتة ولت السعادة عن بلاد اليمن السعيد¹⁶، ليتولى الأمر من بعده أحد أبنائه وهو معد يكرب، والذي لم يحكم إلا فترة قصيرة، وقد بلغ حادث اغتيال سيف الى كسرى أنوشيروان فبعث وهرز في أربعة آلاف من الفرس، وأمر بقتل كل أسود باليمن أو منتسب لهم، وقتل الأحباش صغاراً كانوا أم كباراً، كما أمر كسرى بأن يتولى وهرز أمر الحكم في اليمن، وبعد وفاته تولى الحكم شخصيات فارسية بأمر من كسرى¹⁷، وهكذا يتضح للباحث بأن اليمن قد ودعت محتل لتستقبل محتل آخر، والذي ظل على حكم اليمن (575_632م) حتى ظهور دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم (بروكلمان، 1979م، ص17).

وكما يبدو أن الاحتلال الفارسي لم يقدم لليمن شيئاً، فلم تعد التجارة كما كانت سابقاً ولم يكن هناك تسيير للقوافل التجارية، وهو الأمر الذي زاد من تدهور الأوضاع الاقتصادية في اليمن، بل إلى أن كل أهل ناحية في اليمن ملكوا عليهم رجلاً من حمير فكانوا كملوك الطوائف، كما أن الحكم الفارسي لم يتجاوز بعض المناطق في المرتفعات، خاصة بعد الاضطرابات التي حدثت في الدولة الفارسية، حيث جعلت مركز الحكم الفارسي ضعيفاً، فاستقوت عليهم القبائل العربية وثاروا ضدهم (بافقيه وآخرون، 1985م، ص 119_132).

رابعاً: مكة والتجارة القرشية:

أما تأثير الأحداث في جنوب غرب الجزيرة العربية على مكة فقد بدأ منذ بداية الصراعات الداخلية في المملكة الحميرية، والمتمثلة في الخلافات على الحكم، و الانقسامات الدينية بين اليهودية والنصرانية، وباعتبار مكة تقع على طريق التجارة الرئيسي وهو المعروف بطريق البخور¹⁸، فقد كان من مصلحتها استمرار تدفق القوافل التجارية والتي بدأت تقل مع بداية أحداث الصراعات الدينية تدريجياً وحتى الاحتلال الحبشي لجنوب غرب الجزيرة العربية، ولذلك لجأ رجال مكة وتحديداً من قريش إلى جلب السلع من جنوب غرب الجزيرة العربية وإيصالها إلى كل أصقاع العالم القديم مستغلين خبرتهم التجارية ومعرفتهم بمسالك القوافل (أبو الفضل، 1980م، ص138)، التي اكتسبوها من اختلاطهم قبل ذلك مع التجار والجاليات المعينية والحميرية واللحيانية والأنباط وغيرهم، الذين كانوا يسكنون حول مكة للإشراف على قوافل بلدانهم التجارية، فاكتسبوا منهم بعض عناصر حضارتهم وطرق ممارستهم للتجارة، التي ساعدتهم على النهوض بالتجارة المكية (جواد علي، 1968م، ج4، ص547)، ولا يستبعد الباحث أن تكون العلاقات الاقتصادية والاجتماعية بين قريش والتجار الأوائل في جنوب غرب الجزيرة العربية أو وكلائهم، قد ساعدوا أهل مكة في أول الأمر بالنهوض في التجارة، وإرجاعها إلى سابق عهدها، بعد تدهور الأوضاع الأمنية في الجنوب، فالمصلحة والمنفعة واحدة، وهو ما أدى بدوره إلى نهوض التجارة القرشية، حيث لم تعد العلاقة بين القبائل في جنوب غرب الجزيرة العربية كما كانت قبل الاحتلال الحبشي والفارسي، مما صعب عليهم تجهيز قوافل تجارية كبرى كما كانت في السابق، بخلاف أهل مكة

¹⁶. اختلف المؤرخون حول أسباب مقتل سيف بن ذي يزن فمنهم من قال انه كان بسبب خلافات داخلية، حيث كانت لبعض القادة اليمنيين رغبة في إبعاده عن السلطة، كي يؤول لهم الحكم، بينما يرى البعض الآخر أن الفرس كانوا العقل المدبر للاغتيال خوفاً من تزايد نفوذ سيف وربما رغبته لاحقاً بطرد الفرس.

¹⁷. تولى أمر اليمن بعد وفاة وهرز ولاة من فارس بأمر كسرى وهم: المرزبان بن وهرز ثم البيجان بن المرزبان بن وهرز ثم خرخره أو خرخرة البيجان بن المرزبان بن وهرز، وهو الذي غضب عليه كسرى واستدعاه إلى فارس وبعث باذاناً إلى اليمن، وهو الذي بعث بإسلامه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم. محمد بن جرير الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج2، ص748.

¹⁸. للمزيد عن هذا الطريق راجع (بشري، 2023م، ص618-630)

الذين أقاموا العلاقات مع كل القبائل، وسمحوا لهم بالمشاركة في القوافل التجارية، خاصةً بعد أن عقد عبدالمطلب بن عبدمناف اتفاقيات تجارية معهم.

استفاد القرشيون كثيراً من الجاليات التجارية التي كانت تسكن حول مكة، فمنهم تعرفوا على أهم السلع التي تتطلبها الأسواق العربية والعالمية، فتوجهوا إلى مصادرها وعقدوا الاتفاقيات على شراءها وتسويقها، ولا يستبعد الباحث أن الكثير من تلك الجاليات وخاصةً من جنوب غرب الجزيرة العربية بعد التدهور الأمني، قد عملوا مع قريش عقب توليها زمام الأمور التجارية، لتحقيق منفعة مشتركة، كما استفادوا منهم في معرفة طرق البيع والشراء، وعقد الصفقات، ومسالك الطرق التجارية، ووقت انعقاد الأسواق الموسمية في الجزيرة العربية وخارجها بحكم خبرتهم السابقة.

لم تكن الحروب والصراعات في جنوب غرب الجزيرة العربية، لها تأثير على تطور التجارة القرشية فحسب، بل كذلك ضُعب المراكز التجارية في شمال شبه الجزيرة العربية، نتيجة الحروب الفارسية البيزنطية، والتي بدأت منذ أوائل القرن السادس وتحديداً في عهد الإمبراطور أنستاسيوس (491-515م)، حيث استمرت حتى عهد الإمبراطور هرقل (610-641م)، الذي استطاع إيقاف التقدم الفارسي، وتخليص الإمبراطورية البيزنطية من الخطر المحدق بها، وبالطبع تأثرت المراكز التجارية الواقعة في طريق دارا ونصيبين والرقّة، مما أدى إلى تحويل التجارة الدولية عن طريقها القديم نتيجة فرض الدولتين لرقابة صارمة على الحدود¹⁹، ولعل هذا الأمر ساعد القرشيون على تولي زمام أمور التجارة في الشمال، مثل ما فعلوا في الجنوب الغربي للجزيرة العربية، ولا نستبعد أن يكون الفرس والروم قد رحبوا بالقرشيين، وتعاونوا معهم، باعتبارهم ليسوا حلفاء لطرف على حساب الطرف الآخر، فوفادة هاشم بن عبد مناف إلى الشام، ودخوله على قيصر الروم، وطلبه أن يكتب لهم كتاباً يؤمنهم، يؤكد ما ذهب إليه الباحث، وكذلك وفادة نوفل بن عبد مناف إلى كسرى ليأخذ عهداً منه لتأمين تجار قريش (بن حبيب، 1405هـ/1985م، ط1 بيروت، ص41-45).

مارس أهل مكة التجارة بنشاط وألوهها جل اهتمامهم، لأنها كانت في نظرهم أشرف المهن وأعلاها قدراً (بن حبيب، 1405هـ/1985م، ط1 بيروت، ج 4، ص547)، فأنشأوا لها الأسواق، ووفروا لها الأمن والهدوء والسلام ونظموا قوافلها وهبأوا لها ما يلزم لحمايتها وما تحتاجه القوافل من ماء وعلف ومرافق وخدمات واستراحات، وعززوا دعائمها بعقد الايلافات والحبال (العصم) والعهود لتنشيطها وتوسيع أفاقها (بن حبيب، 1384هـ/1964م، ط1 القاهرة، ج 4، ص31 وما بعدها)، كما نظموا شؤون الحج وحولوه الى مورد خدمات تجلب لهم المنافع المادية والنفوذ الأدبي، حيث كانت تتبع ما عند الأعراب القادمين إليها من البادية ولأهل القرى البعيدة عن مكة، وتشترى منهم ما يحملونه معهم من موارد و سلع، ثم تقوم قوافل قريش بنقل الفائض مما اشترته إلى الأسواق الخارجية في بلاد الشام والعراق، وتشترى في مقابل ذلك ما يحتاج إليه أهل الحجاز وأعراب البادية من مواد وبضائع، فكانت تنقل من الشام القمح والزيتون والخمور الجيدة والمصنوعات، وتحمل من اليمن سلعاً من الهند كالذهب والأقمشة الحريرية والقطنية والكتانية والأرجوانية والأنيّة الفضية والنحاسية، وإلى جانب بضائع الهند والصين كانت القوافل تحمل منتجات اليمن من البخور والمر والعود والجلود المدبوغة والأحجار الكريمة، كما كانوا يحملون من إفريقيا الشرقية الذهب والعبيد والعاج والجلود وخشب الأبنوس وريش النعام، ومن شرق الجزيرة العربية اللؤلؤ وغيرها من السلع، وقد أصبحت مكة خلال حكم قريش دهليزاً لمنتجات الهند والصين وشرق أفريقيا وفارس وبلاد الرافدين والشام والجزيرة العربية،

¹⁹. فيكتور: إيلاف قريش، ص193-196.

وقد أنشئت في مكة ما تتطلبه هذه التجارة الضخمة من مرافق وخدمات، من بينها مستودعات لخرن البضائع ولتصريفها (الشريف، 1968م، ص38).

خامساً: قصي بن كلاب:

يعتبر عهد قصي بن كلاب زعيم قريش، الذي انتزع السيادة على مكة من زعيم خزاعة خُليل بن حبشية بن سلول الخزاعي في النصف الأول من القرن الخامس الميلادي، عهد مرحلة جديدة في تاريخ مكة²⁰، إذ تحول وادي مكة من مجرد مركز ديني يضم الكعبة إلى مدينة عامرة بالبيوت والسكان، عندما أنزل بطون قريش في أبطح مكة وحول الحرم²¹، بعد أن كانت مكة تخلو من أهلها ليلاً فيدخلون الوادي نهاراً فقط، لزيارة الكعبة والطواف بها، أو للجلوس عند البيت لإدارة بعض شؤونهم، فكان لهذا التغيير في وضع مكة انعكاسات واضحة على مجمل جوانب الحياة الأخرى، وتطلب القيام بإجراءات لتنظيم حياة أهل مكة، وأول هذه الإجراءات هو بناء دار الندوة²²، الذي أُتخذ مقرراً لحكم مكة واجتماع ملاً قريش الذي يترجمه قصي بن كلاب، كما استمر بأخذ الضريبة، حيث دخل مكة من غير قريش، كما وظف دور مكة الديني في خدمة دور قريش التجاري، بحيث كان كل من الدورين متلازماً ومكماً للآخر، كما أوجد قصي في مكة وظائف جمعها بيده كلها، فكانت إليه الحجابة (السدانة)²³

²⁰ يبتدئ تاريخ مكة الحقيقي في رأي كثير من الرواة من أيام قصي بن كلاب بن مرة أي مع بداية تاريخ قريش في مكة وظهورهم كقبيلة موحدة تحت اسم قريش، حيث تولى قصي بن كلاب أمر مكة عام 440م، بعد أن تغلبت قريش بقيادة قصي على خزاعة وأجلتها ومن معها من بني بكر عن مكة، ثم عظم نفوذ قصي واجتمعت له السقاية والرفادة والحجابة واللواء التي لم تجتمع في رجل من قبله، وبين قصي وظهور الإسلام مدة تزيد قليلاً على مائة وخمسين سنة، وهي مدة كانت حال قريش فيها متصلة دائماً بمكة، أي أن أسم مكة كان مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بقبيلة قريش حتى ظهور الإسلام، ومن هنا فإن تاريخ مكة يعني تاريخ قريش، فلم تبلغ مكة من الشهرة كما بلغت في الفترة التي ظهرت فيها قريش واستمرت كقبيلة قوية ملكت المال وسيطرت على التجارة وصنعت لنفسها مجداً ومكانة بين القبائل العربية لم تحصل عليها أي قبيلة في مكة وغيرها من مناطق شبه جزيرة العرب قبل ذلك. خليل فياض محمد الفياض: التجارة العربية ومراكزها في شبه الجزيرة العربية قبيل الإسلام، دار النهضة العربية، بيروت، 1437هـ/2016م، ص192_193.

²¹ جمع قصي بن كلاب قبائل قريش تحت لوائه بعد التفريق والتشتت في ضواحي مكة، وأدخلهم بطن الوادي (أبطح مكة) بين أخشبي مكة، فأنزل خاصة قريش فيه، وهم منحدرين من كعب بن لؤي في عدة بطون، بنو قصي بن كلاب وهم بنو عبدمناف وبنو عبدالعزى وبنو عبدالدار وبنو عبد بن قصي، وسائر بني كعب بن لؤي وهم بنو زهرة وتيم ومخزوم وجمح وسهم وبنو عدي بن كعب وبعض بني عامر بن لؤي، فخطط الوادي وقسمه رباعاً فيما بينهم، فنالت المجد والشرف، وسدانة البيت الحرام، واحترفت التجارة التي درت عليهم الأرباح الوفيرة، وملكوا الأملاك في مكة، وخارجها خاصة الطائف، أما بقية قريش (الظواهر) فسكنوا حولهم على المرتفعات، ومن بطون قريش الظواهر بنو محارب والحارث بني فهر وبنو الأدرم بن غالب وبنو معيص بن عامر بن لؤي ومن دخل فيهم، فظواهر قريش هم أعراب مكة وباديتها. عواطف أديب سلامة: قريش قبل الإسلام، ص42_43.

²² كانت دار الندوة بجانب الكعبة، وكان الملاً من قريش يجتمع فيها للتشاور في أمور مكة الهامة، وفيها تُحل جميع الأمور والمشاكل، فلا يُعقد زواج إلا فيها، ولا يُعقد لواء حرب ولا تدرع جارية من قريش أو يُختن غلام إلا فيها، ومنها كانت تُرحل قوافل التجارة، وفي فنائها تحط بعد رجوعها، ويعتبر المشرف عليها بمثابة رئيس مجلس شورى الدولة أو كبير مستشاريها، وكانت رئاستها في قصي بن كلاب، ثم صارت من بعده لابنه عبدالدار، ثم في أحفاد هذا الأخير. (برو، 1422هـ/2001م، ص183)

²³ هي الإشراف على الكعبة، إذ توضع مفاتيحها في عهدة رجل يتولى فتحها للحجاج عند القيام بمناسك الحج الموسمية، وهو الذي يأذن للناس بدخول الكعبة، ولا تقام الشعائر إلا بمعرفته، وقد كانت بيد قصي بن كلاب ثم ابنه عبدالدار، حيث ظلت عندهم حتى دخل الإسلام مكة. تقي الدين الفاسي: شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، ج2، القاهرة، 1956م، ص87.

والسفاية²⁴ والرفادة²⁵ والندوة واللواء²⁶ والقيادة²⁷، كما عوض القبيلة عن قلة إنتاجها الزراعي والصناعي بالتوسع في التجارة المحلية والعربية، ومن أجل تنشيط هذا الدور اتجهت لاحقاً بعد وفاة قصي بن كلاب، وتحديدًا في عهد هاشم بن عبدمناف بعوث رؤساء مكة إلى العالم الخارجي، لعقد المعاهدات التجارية مع الدول الكبرى في أيامهم، فقد توجه هاشم بن عبد مناف إلى قيصر الروم وملك غسان للحصول على إيلاف أو عهد منهم (أبو الفضل، 1980م، ص 135)، كما عقد نوفل والمطلب إخوة هاشم إيلافاً مع دولة الحيرة ودولة الفرس ودولة سبأ وحمير وذي ريدان، وركز عبد شمس على إيلاف الحبشة وشرق إفريقية (القالبي البغدادي، دت، ص 199)، وبهذا اجتمع لقريش إيلاف رحلة الشتاء والصيف، رحلة الشتاء إلى اليمن والحبشة، ورحلة الصيف إلى الشام (الألوسي، 1924، ج3، ص 386)، فأخذت تسيطر شيئاً فشيئاً على حركة المبادلات التجارية في الجزيرة العربية وعظمت قوافلها، حتى قيل أن من قوافلها ما كان يضم ألف بعير ومنها ما يزيد عن الألفين (بيضون، 1982، ص 28)، وكان للقوافل المكية أدلاء وحراس مسلحون، وأما سائقو الإبل والعمال الذين يتولون تحميل البضائع وتفريغها فكانوا من بدو القبائل.

يعتبر الإيلاف القرشي بمثابة حجر الزاوية في بناء قريش اقتصادياً ومكماً للناحيتين السياسية والعسكرية اللتين بناهما أولاً قصي بن كلاب ثم أبنائه واحفاده من بعده (مؤنس، 1988، ص 128)، الذين قبضوا بمهارتهم وذكائهم على مصدر عظيم من مصادر القوة، وبفضلهم انتقلت التجارة نهائياً إلى أيدي قبيلة قريش، وأصبحت التجارة مصدراً رئيسياً لثروة مكة وغناء زعمائها، وبفضلهم انتقلت تجارة مكة من المحلية إلى العالمية، وصارت مكة مركزاً مالياً كبيراً في الحجاز، وسوقاً لتبادل السلع، وتحولت مكة من قرية صغيرة من قرى القوافل إلى مدينة كبيرة لها علاقات تجارية مع أكبر القوى الاقتصادية المحيطة، وفي مقدمتها دولتا فارس والروم (القالبي البغدادي، دت، ص 200).

أدركت قريش نتائج الاضطرابات الدينية والسياسية في جنوب غرب الجزيرة العربية، ولذلك ابتعدت عن استخدام القوة كوسيلة لحل المشكلات المتنازع عليها، واللجوء إلى المفاوضات السلمية، وإقامة علاقات ودية مع الأمراء العرب والحكومات الأجنبية، وعدم التورط في الانضمام إلى معسكر الساسانيين أو معسكر الروم البيزنطية، اللذين كانا يتنازعا السيطرة على المنطقة العربية (سالم، 1971، ص 357)، وقد أفادت هذه السياسة مكة كثيراً، فظهرت زعامتها على القبائل وجعلت القبائل تعترف لها بالتفوق عليها، وتحضر في مواسمها، حتى صارت مكة عند ظهور الإسلام القاعدة المكيبة للعربية الغربية والزعيمة لها، وقد كان من مصلحة جميع الدول والقبائل في الجزيرة العربية وخارجها أن يحسنوا علاقاتهم مع مكة، ليؤمنوا بذلك وصول السلع الإفريقية والهندية وغيرها إلى بلدانهم.

²⁴ وصاحبها يتولى سقاء الحجاج لقلّة الماء العذب في مكة، فينشئ حياضاً من الجلد، توضع في فناء الكعبة، تُنقل المياه إليها في القرب من آبار مكة، وكان العديد منها قد حفر زمن قصي بن كلاب، وكان الماء يُحلى بنقيع الزبيب، ليستطيع الحجاج شربه لما كان فيه من غلظة، وقد ظلت عند بني هاشم بن عبدمناف بعد وفاة قصي بن كلاب. تقي الدين الفاسي: المرجع السابق، ج2، ص90.

²⁵ وهي إطعام الحجاج طعاماً تخرجه قريش من أقواتها في كل موسم، فيأكله من لا يحمل زاداً من الحجاج، أو من كان معوزاً منهم، وكان المقدار الذي يدفعه القرشيون من أموالهم لهذه الغاية مما يتناسب مع ثروة كل منهم، وقد تولاهما بعد قصي بن كلاب بني هاشم بن عبدمناف. تقي الدين الفاسي: المرجع السابق، ج2، ص88_89.

²⁶ وهي الراية وكانت تسمى العقاب، فكانوا إذا أرادوا حرباً أخرجوها، فإذا اجتمع رأيهم على واحد سلموه إياها، وإلا فإنهم يسلمونها إلى صاحبها وكان في بني عبددار، يتولاها منهم ذو السن والشرف. (برو، 1422هـ/2001م، ص 181_182)

²⁷ وهي إمارة الركب، ويعتبر صاحبها كبير القواد، ويسير أمام الجيش في نفوره للقتال، أو في مقدمة الركب إذ سار للتجارة، وكانت القيادة في بني عبد شمس. (برو، 1422هـ/2001م، ص 182)

وهناك مسألة بالغة الأهمية أجد أن لها علاقة بالإيلاف، وهي مسألة الحمس²⁸ الذي ابتدعته قريش وكان موجوداً قبل قصي بن كلاب، ولكن بتوليه مقاليد الأمور في مكة زاد في الحمس، وأدخل فيه أموراً لم تكن قبل ذلك، حيث عملت على توظيف هذه البدعة لخدمة الإيلاف، وذلك بإدخال القبائل معها كخزاعة وبنو عامر بن صعصعة وثقيف وغيرهم، وقد خطت قريش خطوة جديدة لتصريف بضائعها وتنشيط سوق مكة أيام الحج، ففرضت على العرب قاطبةً أن يطرحوا أزواد الحل إذا دخلوا الحرم، وأن يخلوا ثياب الحل ويستبدلوها بثياب الحرم، أما شري وأما عارية وأما هبة، بل رفعوا الأمر وزادوا فقالوا لا ينبغي لأهل الحل أن يأكلوا من طعام جاءوا به معهم من الحل إلى الحرم (الأزريقي، دت، ج1، ص 176-177).

أن هذا الأمر حقق لقريش منافع اقتصادية، فعلى الحجاج من غير الحمس أن يبتاعوا ثياباً من أهل مكة وبالتالي يزداد نشاط سوق الأقمشة، أما بالنسبة للطعام فلا بد والحالة هذه أن تكون في مكة محلات لبيع الأطعمة، وبذلك تحقق ربح مالي مصحوب بمكاسب سياسية، بدخول القبائل في الحمس الذي تقتزن معه منافع مادية، إذ أن هذه القبائل موزعة في منازلها على طرق التجارة، فتقيف في الطائف جنوب شرق مكة، وكنانة على طريق مكة اليمن، وبنو عامر بن صعصعة على طريق اليمامة الحيرة (شمال شرق مكة)، ومعها يربوع ومازن على طريق الحيرة والعراق، وكلب بن قضاة على طريق مكة الشام، وبذلك نجد أن بدعة الحمس ذات الصبغة الدينية كانت ملازمة ومترابطة مع اختراع الإيلاف ذي الصبغة التجارية السياسية، وكلاهما من بنات أفكار قريش (بن حبيب بن أمية، دت، ص 178-179).

أخذت هذه القوافل القرشية بنظام المشاركة، بحيث يسهم فيها القادرون من الأسر والأفراد، وقد يكون لهم فيها وكيل أو شريك أو أجير تحت رئاسة شخصية كبيرة تقود القافلة وتعمل على حمايتها (دلو، 2004، ص 148).

ولم تقتصر مكة على بطونها القرشية الكبيرة وحدها، وإنما ضمت معها أعداداً ممن كانوا يقيمون فيها لفترات مؤقتة أو دائمة من تجار الحبشة والفرس والروم أو غيرهم، وكانت تفرض المكوس والعشور عليهم، وما يقابل أمنهم وخفارة متاجرهم، وبذلك ربطت الزعامة القرشية مصالح وجهاء القبائل بمصالح التجار في مكة (جواد علي، 1968م، ج4، ص19 وص388).

وكما انتفعت مكة بتجارة البر انتفعت كذلك والى حد ما بتجارة البحر الأحمر، وما يحمله من متاجر شرق أفريقيا والمحيط الهندي عن طريق ميناءها الشعبية (صالح، دت، ص 180)، وربما كانت من أسباب حملة ابرهة الأشرم على مكة عام 570م هو تدمير القوة الاقتصادية الناشئة لمكة، التي استغلت كما ذكرنا سابقاً الأوضاع في جنوب غرب الجزيرة العربية لتنهض كقوة اقتصادية وهو ما حدث بالفعل.

إن اتساع الأهمية الدينية والتجارية لمكة قد جعل منها ملتقى لقوى العرب المتفرقة، وبداية لجمعهم في إطار واحد ذي تقاليد قومية مشتركة، كما اتسعت كذلك لغير العرب وتعددت فيها الأديان السماوية والوضعية، ولم تكن التجارة خاصة بالرجال دون النساء، فقد مارسنها بعض من ثريات مكة مثل خديجة بنت خويلد التي كانت تتاجر في أسواق مكة وتستأجر الرجال للسفر بتجارها إلى الشام وغيرها (ابن الأثير، 1280هـ/1286هـ، ج5، ص 435).

²⁸ الحمس: جمع أحمس وهو البين الحماسة، وسميت قريش بذلك لتحمسهم في دينهم وهو تصلبهم، حيث قررت ألا تعظم شيئاً من الحل مثل تعظيمها للحرم، فتركوا الوقوف بعرفة والإفاضة منها مع إقرارهم واعترافهم أن عرفة من المشاعر، والوقوف بها من أركان الحج الذي دعا إليه الخليل إبراهيم عليه السلام، فتركوا ذلك للعرب، كما اتخذوا القباب الحمراء وغيرها، وقد أدخلت قريش كنانة وخزاعة ومن دان بدينهم، ممن ولدته قريش في الحمس، وكذلك حلفائهم، ولو كان هؤلاء الحلفاء من سكان الحل وليس من سكان الحرم. (جواد علي، 1968م، ج6، ص367 وما بعدها)

لم يكن لمكة قبل الإسلام عملة خاصة بها إذ كانوا يتعاملون بالإبل والنقود، وكانت العملات السائدة الدينار الذهبي البيزنطي والدرهم الفضي الساساني ونقود يمنية حميرية (ابن الأثير، 1280 هـ/1286 هـ، ج3، ص61)، وهي نقود غير مسكوكة بل قطع من الذهب الخام المستورد من شرق أفريقيا أو المستخرج من مجاري الأنهار في اليمن، كما استعملوا قطعاً من معدن الفضة الخام، وهذا النوع من النقود غير مسكوكة كان يجري التبادل به تبعاً لمقادير وزن القطع المتداولة منه، كما تعاملوا بنقود أهل الحبشة (برو، 1422 هـ/2001 م، ص242-243).

أدت كل هذه الإجراءات إلى زيادة القوافل التجارية الوافدة إلى مكة، بعد أن وجدت فيها أمناً وراحة، وتحولت قريش من وسيط تجاري إلى تجار يسيرون القوافل التجارية من دار الندوة لمختلف الاتجاهات، وبذلك انتقل تجار مكة من تجار محليين إلى تجار عالميين، وهنا وظفت قريش تحالفاتها القبلية في حماية خطوط التجارة (الهاشمي البصري، ج3، 1990 م، ص93).

لقد نجم عن خروج قريش بتجارها لمناطق عديدة من البلدان والمواضع إلى حصولهم على أموال طائلة، نتيجة ما يحققونه من أرباح عالية، فكانوا يربحون بالتجارة للدينار ديناراً، وبذلك ظهرت فئة من كبار التجار والأغنياء لها علاقات وثيقة مع أصحاب الأموال خارج مكة، خاصة مع الطائف ويثرب واليمن وبلاد الشام والعراق، بحيث أنهم كانوا يتصافقون في التجارة فيما بينهم ويتشاركون في الأعمال، حتى صار القرشيون من أشهر التجار وأكثرهم مالاً في القرن السادس للميلاد (الفياض، 2016، ص223)، منهم على سبيل المثال عبدالله بن جدعان وأبو سفيان بن أمية وأسرة آل أبي أحيحة وأسرة بني مخزوم وأسرة بني عبدمناف وغيرهم (الواقدي، 1965، ج1، ص27)، بل إن اسم قريش ارتبط بحرفة التجارة، فابن هشام يقول: "وإنما سميت قريش قريشاً من القرش والتقرش والتقرش التجارة والاكتساب" (ابن هشام، ج119، ص169)، والأزرقي يقول: "كان يُقال لقصي بن كلاب القريشي ولم يسمى قرشي قبله ويقال أيضاً أن النضر بن كنانة كان يسمى القرشي، وقد قيل أيضاً إنما سميت قريش قريشاً لأنها كانت تكتسب وتتنجر وتتحرش فشبهت بحوت في البحر" (الأزرقي، د.ت، ص108).

ومن الضروري أن نجد إلى جانب هؤلاء التجار الكبار الذين كانت لهم السيطرة الكاملة على مجتمع مكة، تجاراً صغاراً وسطاء لتصريف البضائع في أسواق مكة الداخلية. وبفضل هذا النشاط أصبحت مكة في بداية القرن السادس الميلادي مركزاً تجارياً ومالياً خطيراً، يلعب دوراً أساسياً في العلاقات التجارية في المنطقة، وأنها ممسكة بزمام التجارة في بلاد العرب وتنعدق فيها وحولها أعظم أسواق العرب التجارية والأدبية في موسم الحج، وأن قوافلها تجوب أطراف شبه الجزيرة العربية وخارجها، ونتيجة لما أوجدوه من تنظيمات وترتيبات حققوا نجاحاً كبيراً في الميدان التجاري، وجنوا من وراء ذلك ثروة كبيرة جعلتهم يحتلون مركز الزعامة في شبه الجزيرة العربية، إذ كان تجار قريش أذكيا نافذين، وصاروا أعرف العرب بأسوار التجارة مما مكنهم من تحويل وادي مكة القاحل إلى بندقية الصحراء، التي استمرت على هذا الوضع حتى دخلها الرسول محمد صلى الله عليه وسلم فاتحاً في العام الثامن من الهجرة (عام 631 م).

3. الخاتمة:

وفي الختام أود أن أشير إلى بعض النتائج منها:

- اشتهر العرب في جنوب غرب الجزيرة العربية منذ القدم بالحضارة، حيث اهتموا بالزراعة نتيجة وجود التربة الخصبة، وتوافر كميات الأمطار الكافية، واشتهروا كذلك بالصناعة، وقد ساعدتهم على ذلك طبيعة أراضيهم التي تحتوي على أنواع من المعادن الثمينة، كما اهتموا بالتجارة لتوسطهم بين مناطق العالم القديم، وجنوا من ذلك أرباحاً هائلة، ساعدتهم على القيام بمشاريع عمرانية ضخمة، وتحقيق الكثير من المنجزات.

- أسهمت التجارة في تطور اليمن وتقدمها، وفي إغناء الأرسقراطية والفئات التجارية، الذين كان لهم حظ من رفاهية العيش والتتعم والتفنن في المأكّل، وامتلاك الإماء والعبيد.
- كانت القوافل التجارية لدول جنوب غرب الجزيرة العربية تمر بمكة، التي أصبحت محطة مهمة على طريق القوافل في منتصف الطريق بين مأرب في الجنوب والبراء في الشمال، وذلك بعد تفجر ماء زمزم لهاجر وابنها إسماعيل في القرن التاسع عشر قبل الميلاد، وقد نزلت بها بعض القبائل اليمنية التي حكمتها زمناً كقبيلة جرهم وخزاعة.
- كان دور مكة قبل عهد قصي بن كلاب حوالي منتصف القرن الخامس الميلادي، هو تقديم العون والمؤن للقوافل التجارية القادمة من الجنوب الغربي إلى البراء أو العكس، حيث كانت محطة استراحة للتجار ودوابهم، كما كانت نظرتهم للتجارة في أول الأمر على أنها ليست من اختصاصهم، ولذا فقد اعتمدوا على ضريبة العشر، مضافاً إليها الهدايا والندور التي تقدم إلى الكعبة، وكذلك ما تحصل عليه من عائدات عن سقاية الحاج والرفادة.
- إن الخلافات الداخلية المحتدمة بين القبائل اليمنية في صراعها الدائر على السلطة وخاصةً بين سبأ وحمير، التي بدأت منذ القرن الثالث الميلادي ثم تطورت بعد ذلك، مكنت مملكة أكسوم الحبشية من التدخل بل المساهمة في تأجيج الصراع واستمراره، مما كان سبباً في أضعاف دور اليمن التجاري.
- إن الانقسامات الدينية بين اليهودية والمسيحية التي أدت إلى التطاحن، كانت بداية أفول الحضارة في جنوب غرب الجزيرة العربية، حيث مهدت للاحتلال الحبشي ثم الاحتلال الفارسي.
- كان من مصلحة مكة استمرار تدفق القوافل التجارية، والتي بدأت تقل مع بداية أحداث الصراعات الدينية تدريجياً وحتى الاحتلال الحبشي لجنوب غرب الجزيرة العربية، ولذلك لجأ رجال مكة وتحديداً من قريش إلى جلب السلع من جنوب غرب الجزيرة العربية، وإيصالها إلى كل أصقاع العالم القديم، مستغلين خبرتهم التجارية ومعرفتهم بمسالك القوافل، التي اكتسبوها من اختلاطهم قبل ذلك مع التجار والجاليات المعينية والحمرية واللحيانية والأنباط وغيرهم، الذين كانوا يسكنون حول مكة للإشراف على قوافل بلدانهم التجارية، فاكسبوا منهم بعض عناصر حضارتهم وطرق ممارستهم للتجارة، التي ساعدتهم على النهوض بالتجارة المكية.
- مارس أهل مكة التجارة بنشاط وأولوها جل اهتمامهم، لأنها كانت في نظرهم أشرف المهن وأعلاها قدراً، فأنشأوا لها الأسواق، ووفروا لها الأمن والهدوء والسلام ونظموا قوافلها وهياؤها ما يلزم لحمايتها وما تحتاجه القوافل من ماء وعلف ومرافق وخدمات واستراحات، وعززوا دعائمها بعقد الايلافات والحبال (العصم) والعهود لتنشيطها وتوسيع آفاقها.
- يعتبر عهد قصي بن كلاب زعيم قريش، الذي انتزع السيادة على مكة من زعيم خزاعة خليل بن حبشية بن سلول الخزاعي في النصف الأول من القرن الخامس الميلادي، عهد مرحلة جديدة في تاريخ مكة، إذ تحول وادي مكة من مجرد مركز ديني يضم الكعبة إلى مدينة عامرة بالبيوت والسكان.
- يعتبر الإيلاف القرشي بمثابة حجر الزاوية في بناء قريش اقتصادياً ومكماً للناحيتين السياسية والعسكرية اللتين بناهما أولاً قصي بن كلاب ثم أبنائه واحفاده من بعده.
- أدركت قريش نتائج الاضطرابات الدينية والسياسية في جنوب غرب الجزيرة العربية، ولذلك ابتعدت عن استخدام القوة كوسيلة لحل المشكلات المتنازع عليها، واللجوء إلى المفاوضات السلمية، وإقامة علاقات ودية مع الأمراء العرب والحكومات الأجنبية، وعدم التورط في الانضمام إلى معسكر الساسانيين أو الروم البيزنطية، اللذين كانا يتنازعان السيطرة على المنطقة العربية.

- إن اتساع الأهمية الدينية والتجارية لمكة قد جعل منها ملتقى لقوى العرب المنفرقة، وبداية لجمعهم في إطار واحد ذي تقاليد قومية مشتركة، كما اتسعت كذلك لغير العرب وتعددت فيها الأديان السماوية والوضعية.
- أصبحت مكة في بداية القرن السادس الميلادي مركزاً تجارياً ومالياً خطيراً، يلعب دوراً أساسياً في العلاقات التجارية في المنطقة، وأنها ممسكة بزمام التجارة في بلاد العرب وتتعدّد فيها وحولها أعظم أسواق العرب التجارية والأدبية في موسم الحج، وأن قوافلها تجوب أطراف شبه الجزيرة العربية وخارجها، ونتيجة لما أوجدوه من تنظيمات وترتيبات حققوا نجاحاً كبيراً في الميدان التجاري، وجنوا من وراء ذلك ثروة كبيرة جعلتهم يحتلون مركز الزعامة في شبه الجزيرة العربية.

4. توصيات الدراسة:

1. من الضروري الاستمرار في التنقيبات الأثرية في مدينة مكة وما جاورها، وكذلك في جنوب غرب الجزيرة العربية، للكشف عن النقوش والبقايا الأثرية، لمعرفة المزيد من العلاقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية بين قبيلة قريش ودول الجنوب الغربي للجزيرة العربية، وأثر الاحتلال الحبشي والفارسي على هذه العلاقة.
2. تحفيز طلاب الدراسات العليا المتخصصين في التاريخ القديم، لكتابة الرسائل العلمية في الماجستير والدكتوراة، عن علاقة عرب الجنوب بالشمال في الجزيرة العربية، في جميع المجالات، وأثر ذلك على كل القبائل العربية، وعلى الدول خارج الجزيرة العربية.
3. ضرورة المحافظة على الآثار القديمة الثابتة والمنقولة في الجزيرة العربية بصفة عامة، وتشكيل فرق بحثية في التاريخ القديم، لكشف اللثام عن علاقات القبائل العربية مع بعضها البعض، والآثار الإيجابية والسلبية لذلك، مستعينين بفرق في تخصص الآثار وقراءة النقوش.
4. المحافظة على الطرق التجارية البرية القديمة في الجزيرة العربية بصفة عامة، والطرق التجارية التي كانت تربط الجنوب الغربي بالشمال بصفة خاصة، لما له من الأثر الكبير في تطور مكة قبل الإسلام، وظهور قبيلة قريش، وأن يكون ذلك معلم سياحي يروج له من أجل ربط الماضي بالحاضر.

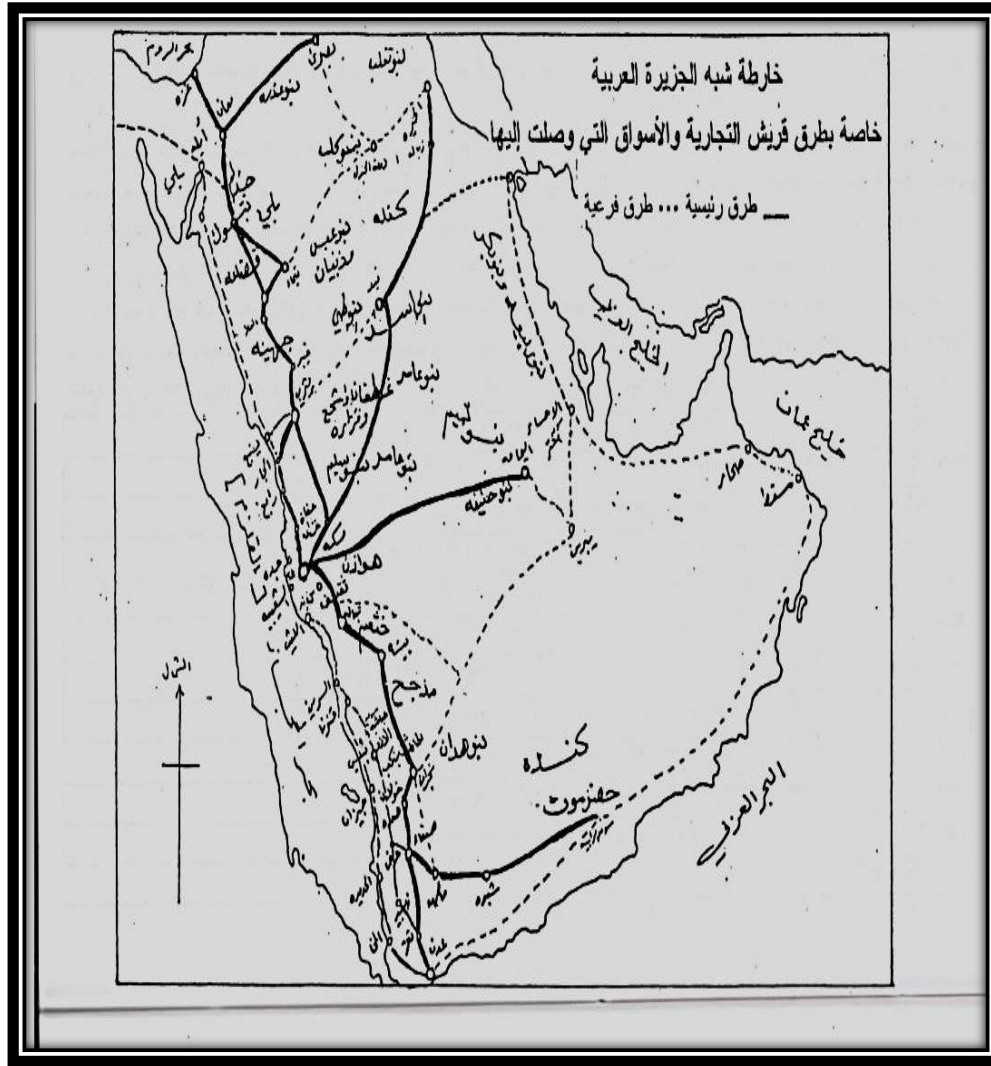
5. المصادر والمراجع:

1. القرآن الكريم.
2. بيضون، إبراهيم. (1982). الإيلاف القرشي. مجلة تاريخ العرب والعالم، (42)، 28.
3. المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين. (1409 هـ). مروج الذهب ومعادن الجوهر (الجزء الأول، تحقيق أسعد داغر).
4. ابن الأثير، أبو الحسن علي بن عبد الواحد. (1978). الكامل في التاريخ (الجزء الأول). بيروت: دار الفكر.
5. القالي، أبو إسماعيل بن القاسم البغدادي. ذيل الأمالي والنوادر. بيروت: دار الكتاب العربية.
6. ابن حبيب، أبو جعفر محمد بن حبيب. (1964). المنمق في أخبار قريش (تصحيح وتعليق خورشيد أحمد فاروق، الطبعة الأولى). القاهرة.
7. ابن حبيب، أبو جعفر محمد بن أمية. المحبر (رواية الحسن بن الحسين السكري، تصحيح أيلزة لنجتن شنتير). بيروت: د.ت.
8. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير. (1979). تاريخ الرسل والملوك (الجزء الثاني، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الخامسة). القاهرة: دار المعارف.

9. الأزرقى، أبو الوليد محمد بن عبد الله. أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار (الجزء الأول، تحقيق رشدي ملحس). بيروت: دار الأندلس.
10. الشريف، أحمد إبراهيم. (1965). مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول. القاهرة: دار الفكر العربي.
11. الشريف، أحمد إبراهيم. (1968). دور الحجاز في الحياة السياسية العامة في القرنين الأول والثاني للهجرة (الطبعة الأولى). القاهرة.
12. اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر. تاريخ اليعقوبي. بيروت: دار صادر.
13. الهمداني، الحسن بن أحمد. (2008). صفة جزيرة العرب (تحقيق محمد بن علي الأكوغ، الطبعة الثانية). صنعاء: مكتبة الإرشاد.
14. سالم، السيد عبد العزيز. (1971). تاريخ العرب في عصر الجاهلية. بيروت: دار النهضة.
15. الفياض، خليل فياض. (2016). التجارة العربية ومراكزها. القاهرة: دار النهضة العربية.
16. دلو، برهان الدين. (2004). جزيرة العرب قبل الإسلام: التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والسياسي (الطبعة الثانية). بيروت: دار الفارابي.
17. أحمد، بشرى جعفر. (2023). طريق البخور وأهميته في تجارة بلاد اليمن حتى القرن الرابع الميلادي. المؤتمر العلمي السادس والعشرين للعلوم الإنسانية والتربوية، الجامعة المستنصرية - كلية التربية، العراق، 618-630.
18. الفاسي، تقي الدين. (1956). شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام (الجزء الثاني). القاهرة.
19. برو، توفيق. (2001). تاريخ العرب القديم (الطبعة الثانية). بيروت: دار الفكر المعاصر.
20. منقوش، ثريا. سيف بن ذي يزن بين الحقيقة والأسطورة والأمل. د.ت.
21. بيرين، جاكلين. (1963). اكتشاف جزيرة العرب (ترجمة قدرى قلعجي). بيروت.
22. علي، جواد. (1968). المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (الأجزاء الثالث والرابع والسادس، الطبعة الأولى). بيروت: دار العلم للملايين.
23. مؤنس، حسين. (1988). تاريخ قریش (الطبعة الأولى). جدة: الدار السعودية للنشر والتوزيع.
24. الفياض، خليل فياض محمد. (2016). التجارة العربية ومراكزها في شبه الجزيرة العربية قبيل الإسلام. بيروت: دار النهضة العربية.
25. العلي، صالح أحمد. (2000). تاريخ العرب القديم والبعثة النبوية. بيروت: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر.
26. صالح، عبد العزيز. تاريخ شبه الجزيرة العربية في عصورها القديمة. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.
27. ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم. (1280هـ-1286هـ). أسد الغابة في معرفة الصحابة (الجزء الخامس). القاهرة: جمعية المعارف.
28. معطي، علي. (2003). تاريخ العرب الاقتصادي قبل الإسلام (الطبعة الأولى). بيروت: دار المنهل اللبناني.
29. المحمداوي، علي صالح. (2012). عبد المطلب بن هاشم: دراسة في اسمه ونسبه وولادته ونشأته وصفاته. مجلة دراسات تاريخية، جامعة البصرة - كلية التربية للبنات، (13)، 31-114.
30. سلامة، عواطف أديب. (1994). قریش قبل الإسلام: دورها السياسي والاقتصادي والديني. الرياض: دار المريخ للنشر.
31. أبو الفضل، عوض الله. (1980). مكة في عصر ما قبل الإسلام (الطبعة الثانية). الرياض: دار الملك عبد العزيز.

32. مرعي، عيد سعيد. (2004). تاريخ الجزيرة العربية القديم (الطبعة الأولى). بيشة: مكتبة الخبتي.
33. العماري، فضل بن عمار. (2016). التاريخ السياسي الشفهي للجزيرة العربية قبل الإسلام. الرياض: دار جامعة الملك سعود للنشر.
34. بروكلمان، كارل. (1979). تاريخ الشعوب الإسلامية (ترجمة نبيه فارس ومنير البعلبكي، الطبعة الثامنة). بيروت: دار العلم للملايين.
35. يحيى، لطفي عبد الوهاب. (1979). العرب في العصور القديمة. بيروت.
36. مهران، محمد بيومي. دراسات في تاريخ العرب القديم. الإسكندرية: د.ت.
37. مهران، محمد بيومي. (1993). تاريخ العرب القديم. الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية.
38. ابن سعد، محمد بن سعد الهاشمي البصري. (1990). الطبقات الكبرى (الجزء الثالث، تحقيق محمد عبد القادر عطا، الطبعة الأولى). بيروت: دار الكتب العلمية.
39. الواقي، محمد بن عمر. (1965). المغازي (الجزء الأول، تحقيق مارسدن جنسن). القاهرة: دار المعارف.
40. ابن هشام، محمد بن هشام. السيرة النبوية (ج119، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد). مصر: شركة الطباعة الفنية.
41. هيكل، محمد حسين. حياة محمد (الطبعة الخامسة). القاهرة: مطبعة مصر.
42. بافقيه، محمد عبد القادر وآخرون. (1985). مختارات من النقوش اليمنية. تونس: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم وإدارة الثقافة.
43. بافقيه، محمد عبد القادر. (1973). تاريخ اليمن القديم. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
44. باوزير، محمد عبد الله. (1996). الصراع اليهودي المسيحي في اليمن القديم: جذوره وآثاره (رسالة ماجستير غير منشورة). كلية الآداب، جامعة عدن.
45. الأكوغ، محمد علي. (1971). اليمن الخضراء مهد الحضارة (الطبعة الأولى). القاهرة: مطبعة السعادة.
46. الألوسي، محمود شكري. (1924). بلوغ الإرب في معرفة أحوال العرب (الجزء الثالث، الطبعة الأولى). مصر: المطبعة الرحمانية.
47. الختعمي، مسفر. (2001). الأثر السياسي والحضاري لدرج البخور في عصور ما قبل الإسلام. اللقاء العلمي الثالث، جمعية التاريخ والآثار لدول مجلس التعاون الخليجي، مسقط.
48. العابد، مفيد رائف. (1999). معالم تاريخ الدولة الساسانية (الطبعة الأولى). دمشق: دار الفكر المعاصر.
49. الحميري، نشوان بن سعيد. (1978). ملوك حمير وأقيال اليمن: قصيدة نشوان بن سعيد وشرحه المسمى خلاصة الجامعة لعجائب أخبار الملوك التابعة (تحقيق إسماعيل بن أحمد الجرافي وعلي بن إسماعيل المؤيد، الطبعة الثانية). بيروت: دار العودة.
50. جبران، نعمان محمود، وآل ثاني، روضة سحيم. (1998). دراسات في تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام. أربد، الأردن: مؤسسة حمادة للخدمات الجامعية.
51. النعيم، نورة. (1992). الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية في الفترة من القرن الثالث قبل الميلاد وحتى القرن الثالث الميلادي (الطبعة الأولى). الرياض: دار الشواف للنشر والتوزيع.
52. عبد الله، يوسف محمد. (1990). أوراق في تاريخ اليمن: بحوث ومقالات (الجزء الثاني). بيروت: دار الفكر.





جميع الحقوق محفوظة © 2025، الدكتور/ سلطان أحمد الغامدي، المجلة الأكاديمية للأبحاث والنشر العلمي

(CC BY NC)

Doi: doi.org/10.52132/Ajrsp/v6.72.1